السيمياء

المفهوم والآفاق

الأستاذ: **شلواي عمار**
جامعة محمد خيضر
بسكرة

سيداتي، سادتي، الضيوف الكرام، الأساتذة الأفاضل، أبنائي الطلبة، نزلتم أهلا وحللتم سهلا، ها نحن اليوم، بدافع حب المعرفة والإطلاع، نلتقي لناقش موضوعا أو منهجا، يعد من أحدث وأعمق المناهج الفكرية المعاصرة، هذا المنهج العام الذي تشير إليه لفظة "السيمياء" البسيطة الشكل، العميقة المحتوى.

ومن غير شك، أن هذا المصطلح قد يثير تساؤلات عديدة واستفسارات متنوعة، بطرحها غير المتخصص وغير المطلع على هذا الميدان الرحب، قصد المعرفة والإطلاع، كما قد يطرحها المختص قصد تعميق البحث السيميولوجي، وهي أسئلة مشروعة، ومنها على سبيل المثال: ما السيمياء؟ وما مفهومها كعلم أو كمنهج؟ وما هو موضوعها؟ وما طموحاتها وأهدافها؟ ولماذا هذا الاختيار باللذات، ليكون مجال فعاليات هذا الملتقى الذي ينظمه قسم اللغة العربية وآدابها، في جامعة محمد خيدر.

هذا ما سنحاول تبسيطه والإجابة عنه،من خلال هذه المداخلة المتواضعة التي تعرف بهذا لعلم، وتساعد -بالتالي- على فهم ومتابعة فعاليات هذا الملتقى بجميع محاوره.

وأفضل بداية، تدخلنا في هذا المجال، بقوله تعالى: ﴿تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا﴾ البقرة 76، ﴿وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم﴾ الأعراف46 ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم﴾ الأعراف 48

﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم﴾ سورة محمد 30 ﴿سيماهم في وجوهـــهم من أثر السجود﴾ الفتح 29﴿يعرف المجرمون بسيماهم﴾ الرحمن 41.

ويتضح مما سبق، أن لفظ "السيمياء" ورد في القرآن الكريم ست مـــرات، بمعنى العلامة، سواء أكانت متصلة بملامح الوجه أم الهيئة أم الأفعال والأخـلاق. وفي لسان العرب: «السومة، والسيمة، والسيماء والسيمياء: العلامة» بصفة عامـة من غير تحديد أو تقسيم.[1]

وعلى الرغم من تعرض علماء العرب في أبحاثهم، للعلامة اللغوية، كـأداة للتواصل، ونقل المعارف، وتطرقهم لتعدد لأدوات التواصل وتنوعها تبعا لحاجـة البشر واجتماعهم[2]، فإننا لا ندعي أن هذا العلم بصيغته الحالية كان معروفا، إنمـا ذلك لا يتعدى الإشارة إلى معرفة العرب للعلامة ووظيفتها، من جهة، ومن جهـة أخرى، أردنا أن نربط الحاضر بالماضي، لأن العودة إلى التراث ضرورة وجودية وضرورة معرفية، في الوقت نفسه[3]، وبذلك فقط نشارك فـي بنـاء الحضـارة الإنسانية.

يمكننا إذن أن نقول أن علم السيميولوجيا، أو السيمياء، هو من بين العلـوم الحديثة وثمرة من ثمار القرن العشرين، يـدرس العلامـات فـي كنـف الحيـاة الاجتماعية، وهو يزعم لنفسه القدرة على دراسة الإنسان دراسة متكاملـة، مـن خلال دراسة العلامات المبتدعة من قبله (الإنسان) لإدراك واقعه في آن واحـد[4]، فهو علم الإشارة الدالة مهما كان نوعها وأصلها، وهذا يعني أن النظام الكوني بكل ما يحويه من علامات ورموز هو نظام ذو دلالة. ومـن هنـا يمكـن القـول أن السيميولوجيا علم يدرس بنية الإشارات وعلائقها في هذا الكون، وكذلك توزعـها ووظائفها الداخلية والخارجية[5]، وأصل هذه الكلمة يوناني وهـي مركبـة مـن *Semeion* بمعنى علامة و *Logos* بمعنى خطاب.[6]

وانطلاقا من دور العلامة في الوجود وفي الحياة الاجتماعية نقول: لا شيء سوى العلامة، فالإنسان يشكل مع محيطه نسيجا متداخلا من العلاقات، يتفاعل مـع بني جنسه، مع الطبيعة، في المواقف المختلفة، معتمدا على أنظمة من العلامـــات، يخيفه البرق فيتصرف، تبكيه رؤية الأطلال[7]، يتكلم، يغني، يتعرف على الأشـياء بواسطة العلامات.

ولا غرابة في ذلك، فالإنسان مدني بالطبع، يختلف عن غيره من الكائنـات بحاجته للتواصل والمعرفة، ولا شك أن وعيه بذاته، وتميزه على التعـرف علـى الطبيعة -بعد انفصاله عنها- بالعمل الجماعي، أكسبه القدرة على التعرف علـى العالم، وتكوين التصورات والمفاهيم حوله، وهذا راجع إلـى الاسـتطاعة التـي يتصف بها، فهي أساس الإنجاز والتنفيذ والعقل بدونـها لا فعاليـة لـه، إذ هـو كالمعدوم، لا وجود له، لأنه في حاجة دائمة إلى توفر الاستطاعة على الفعل، لكي يتوصل إلى المعرفة.[8]

والظاهر أن هذه النظرة إلى العقل، تقترب إلى حد بعيد، في مجال اللغة من فكرة الكفاية اللغوية والاستعمال الفعلي للكلام عند "سوسـير" وكذلـك المقـدرة والإنجاز، أو الاستعمال الفعلي للكلام[9]، فاللغة كألفاظ وتراكيب وقواعد في الذهن، تعد معدومة، ولا تصبح موجودة إلا بعد استعمالها على شكل أصوات مسموعة أو مكتوبة، غير أن هذه الكفاية اللغوية ضرورية، لأن الذي لا يمتلكـها، لا يمتلـك القدرة على الكلام والإنجاز.

وهكذا فوجود الاستطاعة، يعني وجود العقل والمعرفـة، وليـس يوجـب وجودهما وجود الاستطاعة[10]. ويتحقق ذلك بأدوات خاصة يعبر بها الإنسان عـن إدراكه لذاته وللكون. ومن هنا، تولدت الحاجة إلى العلامة، كأداة تواصل ومعرفـة واصطلحت البشرية على تسميات، ومصطلحات تفسيرية للوجود والحياة بواسـطة

هذا الاصطلاح، اكتسبت العلامات بعدها الثقافي كحقائق خاضعة للمجتمع، في حركته وتطوره.[11]

تنوعت العلامات تبعا لتنوع المعارف والحاجات الإنسانية، فهناك الألفاظ، الإشارات، الرموز، الآثار، الإيماءات، المشهديات، واختص كل نظام من الأنظمة السيميائية بعلامات خاصة، ومع ذلك، يمكن أن تقسم هذه العلامات إلى:العلامات اللسانية(ألفاظ) أو اللغة البشرية، والعلامات غير اللسانية وتشمل جميع أنظمة السيمياء غير اللفظية. وهناك من يقسم هذه الأخيرة إلى العلامات: الشمية، اللمسية، الإيمائية، أو الإشارية، السمعية، الإيقونية.[12]

ومن هنا يتضح أن مصطلح "علامة" أوسع وأشمل من الكلمة التي تعد جزءا من الحقل الأعم، لأنها نوع لفظي من العلامات، تنطلق دلالتها وتتحدد من قيمتها في ثقافة ما حيث لا معنى للصوت في حد ذاته، فهو يكتسب المعنى عبر القيمة الدلالية المرتبطة بالكلمة في لغة معينة أو ثقافة معينة.[13]

وعلى الرغم من الجدل القائم حول علاقة اللغة الطبيعية بالأنظمة السيميولوجية، «إذ نجد من يرفع من قيمة اللغة، ويضعها في قمة الأنظمة السيميائية، على أساس أنها النظام السيميولوجي المفسر، لجميع الأنظمة الأخرى، أي أننا لا نستطيع أن نتحدث عن أي من هذه الأنظمة إلا بواسطة اللغة، كما نجد من يعدها من بين هذه الأنظمة السيميائية من غير تفضيل، وهؤلاء يعتبرون السيميولوجيا أعلم من علم اللغة»[14] إلا أنه ينبغي أن نقر بأن نظام اللغة هو المركز المحور في الحقل السيميولوجي.

والملاحظ يكتشف أن جذور السيمياء والتأملات في اللغة قديمة قدم الإنسان، والفكر والوجود، إذ وصلت إلينا بعض الملاحظات حول العلامة من الحضارات القديمة، كالحضارة الصينية، واليونانية، والرومانية، والعربية، غير أن هذه التأملات بقيت في إطار التجربة الذاتية، لا ترقى إلى مستوى العلمية

والموضوعية[15]. والظاهر أن التأمل في العلامة نشأ لا عن قصد المعرفة، كما قد نتصور، بل عن قصد التشكيك في المعرفة، أي من منطلق رفض هيمنة معرفيـة معينة، فالمدرسة الشكية الإغريقية تنطلـق مـن أن الحـواس قـد تخوننـا، وأن المختصين يناقض بعضهم بعضا، لذلك يجب عدم التصديق بكل ما يزعم والتشكيك في كل ما يقدم ويقال[16].

ثم أخذ هذا المنهج السيميائي يتبلور مع تقدم العلم والعلوم الإنسانية، بصفـة خاصة، ومر بمراحل عديدة، وأول باحث قـدم المصطلـح "السـيميولوجيا" هـو الفيلسوف جيم لوك(*1632-1704 J. Lacke*) غير أن الدراسة السـيميولوجية فـي عصره لم تتجاوز إطار النظرية العامة للغة وفلسفتها النظرية[17].

وأول من دعا إلى علم السيميولوجيا، العلامة فيرديناند ديسوسـير(1857-1914) وقد نظر إلى هذا العلم المتخيل غير الموجود بمنظار لساني (لغوي) وليس بمنظار فلسفي، وقد كانت أفكاره وتفسيراته حول هذا العلم محدودة، لأنه تطـرق إليه فقط أثناء كلامه عن الإشارة المتنوعة تدخل كلها فيما سماه بالسـيميولوجيا[18] التي تدرس حياة الإشارة في مجتمع من المجتمعات والتي يمكن أن تكون جـزءا من علم النفس الاجتماعي، فهذا العلم يدرس بنية الإشـارات ويوضـح الأنظمـة والقوانين التي تحكمها وهو غير قائم -حسب قول دي سوسير- لـهذا فـلا أحـد يستطيع أن يعرف ما هيته، غير أنه في سعي دائب لتحقيق وجوده.[19]

والحقيقة إن السيمياء لم تصبح علما قائما بذاته إلا بعد العمل الذي قام بـه الفيلسوف الأمريكي تشارلز سوندر بيرس (1839-1914) والجهود التي بذلها فـي هذا الميدان حيث قام بوضع نظرية خاصة بالإشارة سـماها *La Sémiotique*، ويعتقد أنها شاملة لجميع العلوم الإنسانية والطبيعية إذ يقول: «ليس باسـتطاعتي أن ادرس كل شيء في هذا الكون، كالرياضيات، والأخلاق، والميتافيزياء، والجاذبيـة الأرضية، والديناميكية الحرارية، والبصريات، والكيمياء وعلم التشريح المقـارن،

وعلم الفلك، وعلم النفس، وعلم الأصوات، وعلم الاقتصاد، وتاريخ العلم، والكلام، والسكوت، والرجال، والنساء، والنبيذ، وعلم القياس والموازين، إلا على أساس أنه نظام سيميولوجي»[20] ومن هذا المنطلق أصبحت الإشارة الدالة مهما كان نوعها ضمن علم السيمياء.

وإذا كان سوسير يركز على الوظيفة الاجتماعية للإشارة، فإن بيرس يركز على الوظيفة المنطقية، غير أن المظهرين يتصلان ببعضهما اتصالا وثيقا، والكلمتان "سيميولوجيا" "وسيميائيات" تعطيان اليوم نظاما واحدا، والفرق في استخدام المصطلح فقط، حيث نجد الأوروبيين يستخدمون المصطلح الأول، بينما يستخدم الثاني كل الناطقين باللغة الإنجليزية.

وهكذا تبلورت السيميولوجيا في القرن العشرين، وصارت علما تشكلت مفرداته، وتحددت مناهجه وصارت حقلا معرفيا.[21] وتبعا لنشأتها اتجهت اتجاهين كبيرين: الأول يحاول تحديد ماهية العلامة ويدرس مقوماتها، وقد مهد لهذا المعنى *Ch. S. Pierce* والثاني يركز على توظيف العلامة في عمليات الاتصال ونقل المعلومات وقد استلهم هذا الاتجاه من مقولات *F. de Saussure.*[22]

والمتأمل يكتشف أن الرؤية السميولوجية للوجود رؤية شاملة توحد بين الحقول المعرفية، وتحارب تفتت العلوم، وترفض التصنيف، فهي محاولة جادة تطمح إلى ربط المعارف الإنسانية. وفي الوقت نفسه تطمح إلى تفاعل الحقول المعرفية المختلفة عن طريق الكشف عن مستوى مشترك بينها، يمكن من إدراك مقومات هذه الحقول، وهذا العامل المشترك هو العامل السيميائي ومعنى هذا أنها تلغي الانشطار المعرفي، وتبقى على الفروق المعرفية.[23]

وهذا المنطلق يناظر منطق الفلسفة التي تبحث دائما عن جوهر الأشياء، وهي منذ بدايتها تحاول أن تقوم بدور الموحد بين العلوم وبدور أنسنة الواقع، بكل

مظاهره الطبيعية والاجتماعية،غير أن الفارق بينهما يكمن في أن الفلسفة تنطلـق من التساؤل عن مفهوم ما، تنقد، تحلل، تعلل، لتربط بينها، ثم تصل بعد ذلك إلـى جوهر الجوانب المرتبطة بالإنسان وعالمه، فهي تصبو في الأخير إلـى الأصـل الواحد إلى مفتاح يحل اللغز الإنساني، بينما لا تنطلق السيمياء، مـن مفـهوم مـا لتفسره وتحلله، وتشرحه، وإنما تنطلق من العلامات كأشياء والربط بينها. وبمعنـى آخر إذا كانت الفلسفة تنطلق من المضمون، فان السيمياء تنطلق من الشكل، فـي فهم الإنسان، ولا تطمح إلى أكثر من وصف الوجود، على العكس، مـن الفلسـفة التي تطمح إلى العثور على مفتاح الوجود.[24]

ومعنى هذا أن الرغبة الكامنة في السيمياء، والتي مازالت تسـيرها هـي الرغبة في الإحاطة بالكلي، والتواصل الشامل والإنساني وراء كل ظاهرة مفـردة. ويبدو أن هذه الرغبة بعيدة المنال إلا أنه لابد منها -في زمن التجزؤ والاستيلاب- لأنها الأجدر والأولى.[25]

هذه النظرة تلخص طموح السيمياء فيما يخص العلوم بصفة عامـة، أمـا طموحها في مجال العلوم الإنسانية، فان استخدامنا لهذا المنهج يساعد على تحويـل هذه العلوم الإنسانية إلى علوم بالمعنى الدقيق لهذه الكلمـة. فالدراسـة والتحليـل بالاعتماد على المنهج العلمي، يبعدنا عن المناهج التأملية والانطباعية، ويتم ذلـك بالسيطرة على المادة التجريبية والوصول إلى مستوى معين من التجريد مما يسمح بتصنيف هذه المادة ووصفها والكشف عن أبنيتها العميقة، ثم استخلاص القوانيـن التي تحكمها. والأعمال الأدبية هي المادة التجريبية التي نتعامل معـها ونصفـها حيث تنشأ الدقة من التعرف على خصوصية هذه المادة ومن التوصل إلى مصطلح محدد يحصر العناصر المختلفة التي تتكون منها الظاهرة (التجريبية)، كما تنشـأ العلمية من خلال التصنيف طبقا لقواعد رياضية، ومن طرح التصـور للأنسـاق المجردة التي تحكم العلاقات التي تربط بين العناصر.

وتبعا للنظرة الشاملة التي تميز بها منهج السيمياء، كقاعدة للتعـامل مـع الظواهر، فإنه لا يفصل الظاهرة التجريبية الواحدة عن المحيط العام الذي تظـهر فيه، فالنص الأدبي مثلا له خصوصياته ومقوماته غير أنه لا يدرس منعزلا بل تتم عملية وضعه في سياقه من خلال كشف ترابطـه مـع الأنظمـة السـيميولوجية المختلفة، أي السياق المعرفي العام للثقافة البشرية.

ولقد ساهم والفن والأدب مساهمة كبيرة في تطور السـيمياء المعـاصرة، وذلك لأن الفنون تدرس في هذا الإطار كإشارات، والإشارات فـي مجـال الفـن تكتسب أهميتها، لا لكونها أداة إيصالية للمعنى فحسب، بل لكونها أيضا أداة جمالية فالإشارة الفنية (الموسيقى، الرسم، الشعر، القصة، الرواية....) تشارك الإشـارة اللغوية في فرز المعنى وتوصيله.[26]

فالسيمياء بهذا التصور تمثل الدرجة الأعمق في الوعي المعرفي وفي قدرة الإنسان على اكتساب المعلوم من المجهول وفي التصنيف الواعـي الـذي ينظـم المعرفة، بل تتجاوز ذلك إلى فهم الواقع وخلقه باستمرار فهي تواصـل وإبـداع. وشعار هذا الملتقى "السيمياء أساس المعرفـة وقنـاة التواصـل" يلخـص ذلـك، فبالعلامات يحدث التواصل وبها يحدث الخلق والابتكار.

المـــراجـــع

1. برنار توسانن ماهي السيميولوجيا، ترجمة مجيد نظيف دار إفريقا الشرق الدار البيضاء المغرب ط2 1944.
2. بيرو جيرو علم الإشارة : السيميولوجيا ترجمة منذر هياشي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ط1 1988.
3. ترنس هوكز البنيوية وعلم الإشارة، ترجمة محمد الماشطة سلسة المائة كتاب بغداد ط1 1986.
4. حنون مبارك، دروس في السيميائيات دار توبقال للنشر الدار البيضاء المغرب ط1 1987.
5. روبارت شولز السيمياء والتأويل، ت سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط1 1994.
6. سيزا قاسم، نصر حامد أبو زيد، مقالات مترجمة ودراسات، دار إلياس العصرية، القاهرة 1986.
7. مارسيلو داس كال، الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة حميد لحميداني وجماعة إفريقيا الشرق الدار البيضـاء المغرب 1987.

الـــهـــوامـــش

[1] لسان العرب، 312/12.

[2] الجاحظ مثلا في كتابة الحيوان، قسم العلامة إلى اللفظ، الخط، الإشارة، ثم العقد. وينظر للاطلاع أكثر على العلامـــات في التراث العربي، مدخل إلى السيميوطيقا ص73 وما بعدها.

[3] مدخل إلى السيميوطيقا ص73.

[4] انظر سوسير في كتابة الدروس، وانظر برنار توسان ترجمة محمد نظيف ماهي السيميولوجيا ص9، وانظـــر ترنـــس هوكز البنوية وعلم الإشارة ترجمة مجيد الماشطة ص113.

[5] بييرجور علم الإشارة ص9.

[6] برنار توسان المرجع السابق ص9 وانظر الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة ص15.

[7] مدخل إلى السيميوطيقا ص12.

[8] المرجع نفسه ص76/75.

[9] راجع سوسير في كتابه الدروس والقواعد التحويلية والتوليدية لتشومسكي.

[10] مدخل إلى السيميوطيقا ص76 وانظر الجاحظ الحيوان(116/2،42/1).

[11] العلامة وان ارتبطت بصورة عامة بالثقافة فهي لا تقتصر عليها، فهناك علامات ترتبط بالطبيعة وبالغريزة وتســـتقل استقلالا تاما عن الثقافة: هجرة الطيور، حركات النمل الإيقاعية، وهناك علامات، لا هي ثقافيـــة صـــرف، ولا هـــي طبيعية صرف، مثل احمرار الوجه قد يدل على الخجل مع أن تصاعد الدم ظاهرة فيسيولوجية طبيعية، غير أن ربـــط ذلك بالحياء ليس التفسير الثقافي لظاهرة طبيعية، انظر مدخل إلى السيميوطيقا ص10 وراجـــع ســـيميوطيقا الثقافـــة، دروس في السيميائيات ص85 وما بعدها ثم راجع روبرت شولز: السيميائيات والتأويل ص14.

[12] برنار توسان، المرجع السابق، ص11-31، وانظر الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة ص15.

[13] مدخل إلى السيميوطيقا ص9.

[14] المرجع نفسه ص36.

[15] بييرجيرو، المرجع السابق ص11،10.

[16] مدخل إلى السيميوطيقا ص...

[17] جيرو المرجع السابق ص18.

[18] المرجع نفسه ص13.

[19] المرجع نفسه ص13،14 وراجع سوسير "الدروس".

[20] جيرو، المرجع السابق ص24 وانظر، حنون مبارك، دروس.

[21] المرجع نفسه ص25.

[22] مدخل إلى السيميوطيقا ص19.

[23] المرجع نفسه ص 12، 13.

[24] المرجع نفسه ص13، 14 وينظر روبرت سولز، السيمياء والتأويل للتوسع في مجال الإنسانيات والسيمياء ص20 وما بعدها.

[25] المرجع نفسه ص 16.

[26] جيرو المرجع السابق ص18.